

تجليات الأثر القرآني في تطور النقد الأدبي

الدكتور: عابد بوهادي

جامعة ابن خلدون – تيارت – الجزائر

يعتبر الأثر القرآني في تطور النقد الأدبي وإثراء البحث فيه من المواضيع التي تقتضي بطبيعتها استقصاء وافيا للظاهرة وتناولها عبر محطات النقد التاريخية الكبرى، تبدأ بالمراحل الأولى لتفسير القرآن الكريم بغرض تبين الموارد التي كان يعتمد عليها والخروج من ذلك إلى روافد كانت تغذيه بالمواد الضرورية لهذا النوع من الدراسة، ومنها جدول اللغة والشعر، وذلك منذ زمن الأصمعي إلى العصر الحديث لتشمل كل ما يمكن أن يساعد على إثراء الموضوع ودراسته، ومما لا شك فيه أن عملية الاستقصاء هذه تسمح للباحثين بالاطلاع على المصادر التي تمكنهم من استخلاص الأسس الفكرية والتطبيقية التي توجه النقد الأدبي لدى كل واحد من هؤلاء المهتمين بالموضوع، علما بأن النقد لا يقاس دائما بمقاييس الصحة والخطأ. وطالما أن طبيعة هذه الدراسة تهتم بلغة القرآن فلا بد من الحديث عن أثره في تلك الدراسات حول الأدب، نظمه ونثره وقيمه وموضوعاته والمؤشرات النقدية التي يتجلى من خلالها هذا الأثر.

Résumé: L'impact du Coran sur l'évolution de la critique littéraire et l'enrichissement de la recherche dans son domaine représente l'un des sujets qui exigent de par leur nature un large sondage du phénomène et de son étude à travers diverses étapes historiques. Car cela nécessite la connaissance des premières étapes de l'explication (tafsir) du Coran. Dans le but de dévoiler les ressources qui servaient de fondations pour la critique littéraire et de là, connaître les confluent qui dès le début alimentaient l'étude sur la littérature (vers et prose). Depuis même l'ère primaire et prendre connaissance dès l'ors de ses apports. Cependant depuis l'ère de El Asmayi jusqu' à l'époque moderne pour toutefois couvrir et englober tout ce qui peut enrichir cette étude. Nul doute que cette initiative devra permettre aux chercheurs de connaître les origines et les sources qui peuvent les aider à conclure les fondations spirituelles et pratiques qui servaient à orienter la critique littéraire chez tous ceux qui s'intéressent à cette étude. la critique ne doit se mesurer par aucune tentative qui essaye de se montrer juste ou parait parfois être adéquate à toute application quelque ce soit. La nature de cette étude peut beaucoup importer quant à la langue du Coran ; et exige par là que l'étude doit porter sur l'impact du Coran, sur la littérature arabe, ses valeurs et sur les indicateurs critiques qui peuvent en démontrer la nature de cet impact.

يكاد يجمع الباحثون على أن حركة النقد الأدبي عند العرب تنقسم إلى فترتين بارزتين: تمتد الفترة الأولى من العصر الجاهلي إلى بداية عصر النهضة في القرن التاسع عشر، وتتضمن مرحلتين: مرحلة أولى لم تعرف التدوين حيث كان الاعتماد فيها على الرواية الشفوية، وتمتد من العصر الجاهلي إلى مطلع العصر العباسي، ومرحلة ثانية، عرفت التدوين الذي أسهم في

تجليات الأثر القرآني في تطور النقد الأدبي

تطوير كثير من العلوم والفنون، وتمتد من العصر العباسي إلى العصر الحديث. أما الفترة الثالثة فهي تلي الفترة السابقة وتمتد إلى اليوم .

نزل القرآن فتأثر الناس بسحره وبيانه، ونادى الإسلام بإنهاء العصبية القبلية وإرساء قيم جديدة، فأصبح الاعتداد بالدين من أهم الموضوعات التي تطرق إليها الشعراء. ثم ظهرت ملامح النقد المنهجي عند العرب حين دون العرب معارفهم وكتهم وتداخلت الثقافة العربية الإسلامية مع الثقافات الأجنبية، مما أدى إلى صقل مواهبهم، وتميز النقد في هذه المرحلة بالابتعاد عن الانطباعات الشخصية في إصدار الحكم وأصبح النقد نقداً منهجياً له أصوله وقواعده. وغيرها...

أما الدراسات القرآنية أو الإسلامية، فإنها تحاول إقامة التوازن بين الفكر والفن من خلال تتبع التفاعل العميق بين الإسلام والشعر. فهي تبحث مفهوم الشعر الإسلامي وارتباط الفنون بالعقائد عامة وبالإسلام خاصة، وتؤسس لمصطلح الأدب الإسلامي في منظور النقد القديم، تعزيزاً لأصالة هذا التصور، وإشارة إلى جذوره التي تضرب في أعماق التصور الأدبي العربي منذ فجر الإسلام، كما تناقش عروبة لغة الأدب الإسلامي في إطار الواقع والطموح وتعالج في الوقت ذاته مسألة الانفتاح على الآداب الأجنبية، ومدى إمكانية دراسة الأدب الإسلامي وفق التقنيات الفنية الحديثة التي لا تتعدى حدود الإسلام، وتحاول الدراسات الإسلامية مناقشة الدوافع التي أدت إلى مزاعم ضعف الشعر الإسلامي في العصور السابقة.

وأما القسم الفكري منها، فيدرس الشعر من خلال التصور الإسلامي للإنسان حسبما أبداه الشعر الإسلامي من حيث كون الإنسان رسولاً وقائداً، وداعية، وعابداً، وفي الوسط الاجتماعي، ومهاجراً، ومجاهداً، وشيخاً، كما تناول خصائص شعر المرأة. وقد ظهر الإنسان في الشعر الإسلامي محوراً للكون موفقاً في أداء الدور الذي ناطه الله به، وكلمة الله الفاعلة في الأرض وخليفته فيها. ذلك أن الإنسان لا يتحرك في هذه الدنيا إلا بمجموعة من القيم والمثل، تكون للمؤمن الحياة الحقيقية التي يعيش وفق منهجها، حتى تشكل له الضوء والنهج والصرط المستقيم الذي هداه الله إليه.

وقد تناولت الدراسات القرآنية ما كان القرآن الكريم يدعو إليه من تأمل في آيات الله في خلق الطبيعة وما فيها من أدلة تسوق العقل إلى الإيمان، ومنافع تخدم الإنسان، غير أن ما يجب الإشارة إليه في هذا المقام هو أن ما يفترض أن يكون عليه الحال في النقد لم يكن ملموساً في النقد العربي القديم عامة، لأنه فصل بين عناصر الإبداع الأدبي حيث كان كل ناقد ينظر إليه من زاوية معينة، فناقد ينظر إلى اللغة، وآخر ينظر إلى المعنى، وآخر ينظر إلى التشبيه وهكذا،

كان النقد العربي بوجه عام مقتصرًا على النظر في بعض مقومات الإبداع لا فيها كلها، ولم تكن المشكلة في تقديم العمل الأدبي من زوايا مختلفة، وإنما المشكلة في قصر العملية التقييمية على جزء يسير من مكونات العمل الأدبي، وإغفال الجوانب الأخرى، والأصل أن تتضافر الرؤى النقدية جميعًا في تقييم العمل الأدبي في شكله ومضمونه وصوره، وفي التجارب والمشاعر والغايات، وتلك هي المشكلة التي يبدو أن النقد العربي القديم وقع فيها عندما غلب المفهوم البلاغي في رؤيته التقييمية.

لقد أغفل النقد العربي في بدايته الجوانب الجوهرية والموضوعية وركز كل اهتمامه على الشكل، وصار لا ينظر إلى مقومات الإبداع ومقاييس الجمال إلا من خلال هذا المفهوم⁽¹⁾ فما يفترض به أن يكون جزئيًا كان أمرًا كليًا وما يفترض به أن يكون وسيلة كان غاية. ولم ير النقاد العرب في الشعر العربي ما هو أبعد من الغاية البلاغية الجمالية، وقد تبعهم الشعراء في ذلك، فأخذوا يهتمون بالصياغة الفنية الجزئية ولا يبالون بجوهر الشعر، ومما لا مرأى فيه أن ميدان النقد هو ميدان للذوق الأدبي يعنى بتحليل النصوص الأدبية، وإبراز ما فيها من فن وجمال، والتعرف على الأسس التي يقوم عليها ذلك الذوق وهذا التحليل.

لقد أخذ القرآن الكريم مكان الصدارة منذ بداية الحياة الإسلامية بصفة كونه النص الأدبي الأول لهذه الأمة والكتاب المبين المعجز. هذا، إلى كونه وحى السماء، وأساس التشريع، والقانون المنظم للسلوك، والمرشد الموجه إلى معالي الأمور وأسمائها منزلة.

إن دراسات القرآن الكريم كانت العامل الأكبر في العناية بتدوين اللغة وجمع الشعر ورواية الفصح، وبحث طرائق اللغة في التعبير وأساليبها في البيان، وكلها مؤشرات تتجلى من خلالها إسهامات هذه الدراسات منذ القرون الأولى للهجرة في تطور الحركة النقدية العربية، فمن المعلوم أن الدراسات القرآنية مرت بمراحل تاريخية طبعها بطابعها الخاص. حيث تشمل المرحلة الأولى القرن الأول الهجري ومعظم القرن الثاني، إلا أننا لا نستطيع أن نجد لها مؤلفات تنطرق إليها، غير أن المرحلة الثانية التي تبدأ من نهاية القرن الثاني وتستمر خلال القرن الثالث تعتبر مرحلة مهمة غنية بثروتها في الموضوع، فقد ألف فيها ابن سلام (ت 231هـ) كتابه النقدي "طبقات فحول الشعراء" وألف الجاحظ (ت 255هـ) كتابه "البيان والتبيين" وألف ابن قتيبة (ت 276هـ) كتابه المشهور في "الشعر والشعراء" والمبرد (ت 286هـ) كتابه "الكامل" في تحليل النصوص العربية وشرحها وموازنتها. وهي كلها كتب تتناول نواحي من النقد الأدبي من جهتيه النظرية والعملية في النظم والنثر.

تجليات الأثر القرآني في تطور النقد الأدبي

يشير ابن النديم (ت 385هـ) في الفهرست إلى ثروة كبيرة من الدراسات القرآنية في تلك المرحلة أهمها كتاب "مجاز القرآن" لأبي عبيدة (ت 209هـ) وكتاب معاني القرآن للفراء (ت 207هـ) وكتاب "مشكل القرآن" لابن قتيبة وغيرها من الدراسات الإسلامية القيمة، ويرى غالبية الدارسين أن هذه الكتب وأشباهاها من كتب الدراسات القرآنية في تلك المرحلة تعد كتباً في صميم المفهوم النقدي، لاعتبارها تحاول فهم النص والتعرف على ظواهر الاستعمال اللغوي والتركيبية فيه، والإشارة إلى ما فيه من وجوه المجاز، فقد اهتمت هذه الكتب بالبحث في ظواهر اللغة وفقهها وطرق الأداء ونظام الجملة العربية في إعرابها وتركيبها، وما في الكلام العربي عامة من فنون التصوير.⁽²⁾

والخلاصة أن القرن الثالث الهجري شهد جمع العلوم العربية والإسلامية وتدوينها كما رافق ذلك التأليف في النقد وتدوينه وشهد مشاركة النحاة واللغويين في النقد بسبب كثرة العلماء والمتخصصين في كل فئة وتوارى النقد الذاتي لهذا القرن وحل محله النقد المهجي وذلك بسبب أبواب المعرفة والثقافة.

وتأتي المرحلة الموالية في القرن الرابع الهجري التي تعتبر الشبات والتخصص الحقيقي في هذه الدراسات، وقد خلفت لنا كتباً يحق للفكر العربي الإسلامي أن يعتز بها اعتزازاً كبيراً، حيث اتسعت الدراسة لتشمل الموازنة بين الشعراء والمتناظرين والفصل فيما يثار حول شاعر بعينه من قضايا نقدية حديثة، فكان من ذلك كتاب الموازنة بين الطائيين (أبي تمام والبحثري) للأمدي (ت 371 هـ) وكتاب قدامة بن جعفر (ت 310 هـ) في نقد الشعر.

بيد أن هذه الدراسات النقدية على كثرتها توجهت إلى الاهتمام بالجانب الشكلي وبالغاية البلاغية. ومما يدل على اقتران الشعر العربي بالغاية البلاغية فضلاً عن النقد، عمود الشعر، إذ ليس لعمود الشعر أي طابع اجتماعي أو سياسي أو ديني أو فكري أو فلسفي، ما عدا الطابع الفني البلاغي، وقد قرن النقاد العرب الشعر بعمود الشعر فقالوا "إن الشعر الجيد المختار ما أتى على أبواب هذا العمود"⁽³⁾ واستناداً إلى ذلك، نشأ تيار نقدي يدعو إلى تجديد الكلام فنياً وإحكام صيغته بلاغياً، دون الالتفات إلى معناه.

ونظرية الجاحظ في الشكل أو نظرية المعاني المطروحة شائعة معروفة حيث قال صاحبها: "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن، في إقامة الوزن وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، والرونق، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس في التصوير"⁽⁴⁾ ولم يكن الجاحظ يتصور أن هذا الكلام سيؤول إلى تفضيل الشكل على المضمون، ولم يتصور أن نظريته التي لم تكن تمثل

خطرا عليه، ستصبح في أيدي رجال البيان خطرا على المقاييس البلاغية والنقدية، لأنها ستجعل العناية بالشكل شغلا شاغلا.⁽⁵⁾

ثم تبعه الأمدي (ت371هـ) القائل: " وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأني، وقرب المآخذ واختيار الشعر ووضع الألفاظ في مواضعها، وأن نورد المعنى باللفظ المعتاد فيه، المستعمل في مثله..."⁽⁶⁾، ثم جاء أبو هلال العسكري (ت395هـ) فيما بعد يردد ما قاله الجاحظ حيث قال: "وليس الشأن في إيراد المعنى، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي، وإنما هو في جودة اللفظ وصفاته، وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتراكيب، والخلو من أود النظم والتأليف، وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا"⁽⁷⁾

تنم هذه المقولة عن مدى تعلق النقاد بظاهر الكلام وفنيته، إذ الشأن في جوهر اللفظ وصحة السبك وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا . وليس يهم بعد ذلك أكان خيرا أم شرا أو كان جيدا أم سيئا؟ وقد سخرت البلاغة العربية لخدمة النقد، واستغنى النقد بها عن سواها، مما جعل أحكامه محصورة بين الجودة والرداءة، ومحوره الغالب اللفظ والبيت والعبارة، فكان من الطبيعي بعد ذلك ألا ينظر النقد القديم في الأدب والفكر أو الفلسفة أو الأخلاق.

ولم يكن النقد العربي القديم يتصور فكرة المذاهب والمدارس على نحو يكون فيه عدد من الشعراء مذهبا خاصا بهم، كصنيع أبي تمام، والمتنبي والمعري مثلا، بل حرموا ذلك ومنعوه، وفرضوا شروطهم، وأملوا فروضهم على كل الشعراء، وهي غالبا شروط تتعلق ببنية الكلام وفنيته، فتجعله على نحو أفضل بلاغيا، وتناسوا جوهر الكلام، وليتهم توقفوا عند الصياغة البنيوية الشكلية للشعر فحسب، بل أنكروا على الشاعر تجاوز المظهر إلى الجوهر، كما أنكروا الغموض والإغراب وحاربوا كل سبيل يمكن أن يسهم في تجديد الشعر العربي أو تطويره.

لذلك، لم يعرف العرب النقد الموضوعي على وجه عام، ولم يتصوروا وجود نقد منهجي على شكل مدارس واتجاهات وغايات في الحياة، وإن وجد فقد أجهضته البلاغة لغلبيتها على النقد، علما بأنه كان في الإمكان مد النقد العربي باتجاهات جديدة تستطيع أن تخلصه من الغنائية لتنتقله إلى الموضوعية، ولا سيما تلك التي فرضها ظهور الإسلام كإدخال مبدأ الفضيلة إلى النقد العربي ومحاولة اقتباس النمط الأدبي القرآني الذي تجلى في القصص القرآني على نحو يشق آفاق موضوعات جديدة يستطيع العرب محاكاتها أو بناء الشعر عليها، فلا يضطرون إلى تحوير معاني القدماء أو سرقتها. إلا أن ذلك لم يحصل حتى في القرون الذهبية للحضارة العربية، ولا سيما القرن الرابع الهجري⁽⁸⁾ فكل ما عرفه النقد في هذا القرن لا يتجاوز المفاضلة والموازنة بين

تجليات الأثر القرآني في تطور النقد الأدبي

الشعراء وهما أمران لم يأتيا بجديد للنقد العربي لأنهما لم يخرجوا عن نطاق الصياغة والنظم وغير ذلك من الأمور البلاغية.

ودرج الشعراء على اتباع هذا الاتجاه؛ بل كان النقد العربي عصيا على التغيير موصدا أبوابه أمام كل جديد، فإن أتى شاعر ما بصورة بعيدة أو غريبة شددوا النكير عليه، واتهموه بالخروج عن عمود الشعر العربي، وربما علة ذلك هيمنة نمط الشعر الجاهلي عليهم، فقد كان مصدر تشريع النقاد العرب، ووجي قوانينهم ولم يكن الإسلام.

لم يغير أكثر النقاد العرب مصدر تشريعهم بعد نزول القرآن الكريم فيتحولون عن قوانين الجاهلية إلى قوانين الإسلام، بل ظلوا ينظرون إلى الشعر الجاهلي حتى قرون متأخرة على أنه القدوة المثلى، والمثل الأعلى، فكان من الطبيعي ألا يخرج الشعر الإسلامي عن سمته الجاهلي وطابعه العام إلا بعض الأغراض والخصائص وأن يحتفظ بكل مقومات الشعر الجاهلي ومنها الفحش والعهر، مما جعل كثيرا من الأسئلة تطرح نفسها بإلحاح على الدارس العربي منها: ما موقف النقاد العرب من الأخلاق الفاضلة والدين الحنيف؟ وهل أثرت الأوضاع السابقة في مواقفهم من هذه الأمور؟

المعلوم أن مظاهر الفحش قد بدأت في العصر الجاهلي إذ تعالت بعض أصوات الشعراء الجاهليين بالفحش والعهر، كما هو معروف في شعر امرئ القيس وشعر الأعشى ومنه قوله:

فقد أخالس رب البيت غفلته وقد يحاذرمني ثم ما ينل⁽⁹⁾

مع أن ما تميز به الشعر الجاهلي من ظاهرة الفحش والعهر لا ينفي بالضرورة العفاف عن كثير من الشعراء الجاهليين، حيث يقول ابن سلام كان من الشعراء من يتأله في جاهليته، ويتعفف في شعره، ولا يستهبر بالفواحش ولا يتهمك في الهجاء⁽¹⁰⁾، والحقيقة أن المشكلة ليست في انتشار الرذيلة في الشعر الجاهلي، إذ لا دين يردعهم ولا وازع يزجرهم إلا من تخلق بخلق حسن وحكمة فاضلة، وإنما المشكلة في الشعر الإسلامي الذي استمر بالفحش والعهر بالرغم مما يحض عليه الإسلام من أخلاق وفضيلة ونهيه عن الفحش والرذيلة، ذلك أن بعض الشعراء المسلمين لم يأخذوا بمبادئ الدين الإسلامي وقواعده الأخلاقية الضابطة علما بأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) وبعض أصحابه أطلقوا ملاحظات نقدية على الاهتمام بالجانب الأخلاقي في الشعر.

فالموقف الإيماني الأخلاقي للشاعر هو المنشود قبل كل شيء عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والميزان الذي يزن به شعر الشعراء هو ميزان القيم والأخلاق الفاضلة والمعاني الحميدة السامية أيا كان حظ الشاعر من الإبداع، فقد وظف النبي (صلى الله عليه وسلم) الشعر في نصرة الدين وإعلاء شأن الأخلاق والفضيلة، وإذا سمح لبعض الشعراء بالهجاء فذلك ردا على

هجاء المشركين، كما سمح بشعر الفخر بقيم الإسلام، والمديح بصور الحقيقة لا يتجاوزها، وعندما قال النابغة الجعدي:

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنما لنرجو فوق ذلك مظهرا

غضب النبي (صلى الله عليه وسلم) وقال أين المظهري أبا ليلى ؟ قال: الجنة يا رسول الله، قال : أجل إن شاء الله وتبسم، ثم أردف النابغة قائلا :

ولا خير في حلم إذا لم يكن به بوادر تحمي صفوه أن يكذرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن حلیم إذا ما أورد القوم أصدرًا

فقال النبي (صلى الله عليه وسلم): "أجدت لا يفضض الله فاك"، فعاش النابغة أكثر من مائة سنة وكان من أحسن الناس ثغرا⁽¹¹⁾. فالرسول (صلى الله عليه وسلم) ينكر على النابغة غلوه الزائد في قوله: (بلغنا السماء مجدنا وجدودنا) ويستنهض فيه فضيلة الصدق عندما اتبع النابغة قوله الأول ببيتين في الحكمة أتى عليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله: لا يفضض الله فاك، وقوله هذا إنما هو حكم نقدي بالجودة وقد استند الرسول (صلى الله عليه وسلم) في إصداره إلى معيار المعاني الحكمية والأخلاق الفاضلة التي رأى الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنها تحققت في بيته ولم ينظر إلى نظمه أو أسلوبه أو غير ذلك من الأمور البلاغية، التي كانت المعيار الأساسي عند العرب، فالمعاني الفاضلة هي الغاية عند الرسول (صلى الله عليه وسلم) والصبغة إنما هي وسيلة فحسب⁽¹²⁾. ومما يرويه أبو هريرة أن النبي كان يستنهض فضيلة الصدق في الشعر حيث روي عنه (صلى الله عليه وسلم) قوله: (أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل⁽¹³⁾)

وكذلك روي أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنشد قول سحيم⁽¹⁴⁾:

الحمد لله حمدا لا انقطاع له فليس إحسانه عنا بمقطوع

فقال: " أحسن وصدق، فإن الله ليشكر مثل هذا، وإن سدد وقارب إنه لمن أهل الجنة"⁽¹⁵⁾ ولا يختلف موقف الصحابة (رضي الله عنهم) عن موقف الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) كموقف عمر من شعر زهير مثلا، عندما قال عنه: كان لا يعاظم بين الكلام ولا يتبع وحشيه، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه، فلا يعتمد الكذب أو النفاق⁽¹⁶⁾. لكن بالرغم من ذلك ظل النقد يعنى بالجانب البلاغي والجمالي دون مراعاة القيم والأخلاق.

هذا الموقف أفضى إلى طرح العديد من التساؤلات لدى كثير من النقاد والدارسين، فهل ستظل غاية الشعر والشعراء هكذا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ؟ ألم يستثن الله جل ثناؤه طائفة منهم ووعدهم بالانتصار؟ ووضع لذلك شروطا يجب الالتزام بها وهي مذكورة في الآية الكريمة:

تجليات الأثر القرآني في تطور النقد الأدبي

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَأَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَمِيمُونَ وَأَتَّخِذُوا مَا لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ
مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾⁽¹⁷⁾.

يحق لنا والحال هذه أن نتساءل عن موقف النقاد العرب من موضوع الأخلاق والفضيلة والقيم الدينية ؟ وهل أثرت الأوضاع السابقة في مواقفهم من هذه الأمور ؟ وما فضل الدين على البلاغة ؟ وهل يقوى الشعر إذا عزل عن الدين؟⁽¹⁸⁾ وعلى أي أساس بنى قدامة بن جعفر (ت 310هـ) وغيره من النقاد مذهبه الذي يقدم الجودة الفنية على القيم الدينية والخلقية وكيف أصبح الكذب دليل قوة الشاعر وقدرته ؟ وما الداعي إلى اعتبار أعذب الشعر أكذبه؟ ولماذا كان الأمدي ينفي فضائل الكلام عن الشعر ويبيح للشاعر الكذب والضرر⁽¹⁹⁾ هذا، في الوقت الذي نجد فيه الأدب الفارسي يعتبر البلاغة جزءا ثانويا، ويقدم عليها الأخلاق والقيم⁽²⁰⁾ ولماذا يتفق النقاد على أنه لا يلتمس الصدق من الشعراء وإنما يلتمس منهم حسن القول والصدق، بل يلتمس ذلك من أخبار الصالحين وشهور المسلمين⁽²¹⁾.

هكذا كانت نظرة الدين إلى الشعر: أن يقترب قول الشاعر بالناحية الإيمانية والأخلاقية ويحض على الخير والفضيلة وينهى عن الشر والرذيلة، فالغاية عنده هي المضمون الأخلاقي، ولم يكن المظهر (الشكل) إلا وسيلة للتعبير عن هذه الغاية. والواقع أنه في الوقت الذي كانت فيه الدراسة الإسلامية النقدية المتخصصة تمضي في طريقها كان هناك نفر من علماء الدراسات الإسلامية يعكفون على إعجاز القرآن، يفصلون القول فيه يشرحون جهاته.

ثم إن القرآن كتاب تشريع جديد، يتخير الألفاظ للمعاني المبتكرة والأسباب المستحدثة ولا ينسج في شيء من ذلك على منوال سابق. وهذه الخصائص البلاغية التي نجدها في القرآن الكريم لا تفسر الإعجاز بل تساعد وترشد فحسب. ولعل في سبيل هذه الغاية صور الباقلائي النتائج التي وصلت إليها جهود مدارس النقد الأدبي إلى عصره وشرح هذه النتائج ومثل لها من القرآن ومن مآثور الأدب العربي.

ولا ننسى أثر القرآن في إثارة بعض المسائل الفنية الجمالية في الأسلوب وهو الأصل الذي قامت عليه دراسات السابقين، والذي كان له الفضل في توجيه دراسات النقد الأدبي العربي في مراحلها المختلفة، فقامت جهود العلماء في دراسات القرآن على جلاء تلك المسائل لحل اللغز الذي حير الناس وهو " الإعجاز " وكانت محاولات شتى للوصول إلى حل له والاهتداء إلى تعليل عللوه أولا بمسائل فلسفية كلامية، لكنه لم يستقم، وقامت حوله اعتراضات ومطاعن واجتنبوا به الناحية البيانية، فتوصلوا إلى نتائج خدمت الأدب والنقد جميعا⁽²²⁾.

تعد هذه المرحلة استمرارا لما قبلها وبلوغا بالبحوث النقدية إلى غاياتها، وقد قامت بحوث الإعجاز بدورها فأفادت من نقد الأدب وأفادوا النقد منها، ثم تأتي مرحلة الكتب الجامعة الشاملة في الموضوع وهذه المراحل ليست زمنية بقدر ما هي تطويرية، لقد تداخلت المراحل بعضها في بعض حتى صارت عبارة عن حلقات متتالية في سلسلة حياة النقد العربي.

وتأخذ فكرة " إعجاز القرآن " مكانها في هذه البحوث النقدية باعتبارها غاية حيننا، وثمرة حيننا آخر. يقول أبو هلال العسكري في هذا الصدد " إن أحق العلوم بالتعلم هو بعد معرفة الله جل ثناؤه علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى، المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة."

ويتبعه في القرن الخامس الهجري ابن سنان الخفاجي (ت 466هـ) على المنوال نفسه فيبين أن معرفة حقيقة الفصاحة تفيد في ناحيتين: الأولى في العلوم الأدبية إذ بها يعرف "نظم الكلام" على اختلاف تأليفه، ونقده، ومعرفة ما يختار منه مما يكره، والثانية في العلوم الشرعية إذ أن المعجز الدال على نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) هو القرآن، سواء أذهبنا مذهب القائلين بأنه خرق العادة بفصاحته، أم مذهب القائلين بالصرفه، فلا مندوحة في الوجهين عن بيان ماهية الفصاحة، لنقطع في الأول بأن فصاحة القرآن خرجت عن مقدور البشر.

وفي الثاني بأنها كانت في مقدورهم ومن جنس فصاحتهم، وتحقيقا لهاتين الفائدتين بحث ابن سنان بحثه الشامل في أصوات اللغة وفي فصاحة المفرد والمركب. وفي بلاغة نعوت الكلام البليغ.

وفي الوقت ذاته كان هناك إمام آخر معاصر لابن سنان الخفاجي يحاول أن يبحث خصائص نظم الكلام وأسرار البلاغة، ويضع في كلتا الناحيتين نظرية جامعة يقررها ويشرحها ويطبقها ويجيب عما قد يوجه إليها من اعتراضات. وهو الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) الذي سعى أكبر كتابيه " دلائل الإعجاز" وبين فيه أن إجماع المسلمين قد اتفق على أن القرآن معجز بنظمه⁽²³⁾، وطريق الوصول إلى إدراك هذا الإعجاز هو معرفة حقيقة البلاغة والفصاحة في النظم. وقد خاض الناس فهما طويلا إلى أيامه، ولكنهم (في رأيه) وقفوا دون الغاية، ولم ينفذوا إلى الأعماق ولم يسلكوا منهجا علميا دقيقا. وهو ما حاول الجرجاني استدراكه على من سبقوه. ففصل القول ووضع يده على الجوهر وحلل النماذج القرآنية والأدبية وانتهى في كتابه هذا إلى أن "بلاغة الكلام ترجع إلى خصائص في نظمه". ثم أكمل نظريته هذه بنظرية أخرى في كتاب "أسرار البلاغة" الذي يقرر فيه أن "جمال الكلام يرجع إلى مبلغ تأثيره في النفوس. وغدا هذان الكتابان يشكلان الأساس الذي قامت عليه المناهج البلاغية في عهدها المتأخرة⁽²⁴⁾.

تجليات الأثر القرآني في تطور النقد الأدبي

ويطل علينا في القرن السادس الهجري أحد أقطاب أولئك الأعلام ليعالج موضوع الإعجاز كذلك، ولكن هذه المرة عن طريق التفسير، ألا وهو الإمام الزمخشري (ت 538هـ) حيث ذهب إلى أن الله قد خص العرب بالنصيب الأوفر من سحر البيان فتصرفوا في ألوان القول المختلفة، لأن التفسير كما هو معلوم لا يستطيع أن يخوض غماره إلا من أتاه الله القدرة على الإحاطة بعلمين ضروريين لذلك هما علم المعاني وعلم البيان. حيث أضحى التفسير جدولاً من جداول الدراسات القرآنية.. ولعل هذا الجدول هو ما يؤكد مدى تأثير الدراسات القرآنية في نهضة البحوث البلاغية.

وفي أواخر القرن السادس وبداية القرن السابع الهجري يبرز ضياء الدين بن الأثير (ت 637هـ) بكتابه المشهور "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"، وهو كتاب جامع بمسائل هذا العلم حافل في تحليل الفن بالنماذج الأدبية والفنية من النظريات الأصلية والملاحظات المبتكرة. حيث يعده الدارسون كتاباً ممتعاً بحق في الدراسات القرآنية، لما تناوله من فنون ودراسات نقدية. وقد تعرض إلى أبواب من البيان لم يتعرض لها السابقون، بلغ بها درجة الاجتهاد⁽²⁵⁾.

وفي العصر الحديث ظهر هناك من الباحثين من حاول استعراض النقد العربي منذ نشأته حتى القرن الرابع الهجري⁽²⁶⁾ في حين اكتفى آخرون بعصر ينحصر في قرن أو قرنين من الزمن يتعرض لحال النقد فيما مع الترجمة للنقاد ومن هؤلاء محمد مندور في النقد المنهجي وطه حسين في بحث البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر الجرجاني⁽²⁷⁾ ومما يدعم هذا الاتجاه أيضاً ما ورد في دراسة الباحث الأمريكي "فون جرينباوم"⁽²⁸⁾ في هذا الميدان وتأتي محاولة بعض الباحثين استعراض الظواهر الفنية المختلفة في الأدب بشعره ونثره والتأريخ لهما في دراسة تطورية مثلما فعل زكي مبارك في كتابه "النثر الفني"⁽²⁹⁾ وشوقي ضيف في كتابه "الفن ومذاهبه" في الشعر العربي و"الفن ومذاهبه في النثر العربي"⁽³⁰⁾.

ووجه بعضهم عنايته إلى الدراسات القرآنية يحاول أن يجدد ويمزج بعض ما استحدث في الغرب من مناهج على الأدب العربي مستعيناً بالدراسات القديمة، متبعاً أصول الذوق العربي وضرورات التعبير في العربية، وتركزت هذه الجهود حول دراسات "الأسلوب" و"أصول النقد" لأحمد الشايب و"الأصول الفنية للأدب" لعبد الحميد حسن و"النقد الأدبي" لسيد قطب و"النقد الأدبي" لأحمد أمين وغيرهم.

وخلصت جهود هؤلاء الباحثين إلى العناية بدراسة فكرة بعينها والتنبيه إلى الظاهرة في الأدب والنقد مع الانتفاع بما نجم من الدراسات الإنسانية المستحدثة كعلم النفس ودراسات الجمال والفن وعلم الذوق ودراسات النقد العربية مثل كتاب "من الوجهة النفسية في دراسة الأدب

ونقده" لمحمد خلف الله و"دراسات في الأدب الإسلامي لمحمد خلف الله أيضا، إلى غير ذلك من الدراسات في هذا الاتجاه

وقد حظي القرآن والدراسات القرآنية بنصيب كبير في ميدان النقد حيث تعرض النقاد والأدباء لأسلوب القرآن على ضوء مناهج البحث الفني وهكذا فعل "سيد قطب" في "التصوير الفني في القرآن" وفي مشاهد يوم القيامة في القرآن" وأحمد أحمد بدوي في "بلاغة القرآن". كان القرآن الكريم ودراساته عاملا هاما في نشأة النقد وتطوره بشكل لا يمكن تجاهله ولا إنكار أثره، وذلك لأنه نص عربي رائع وأنه معجزة النبي القولية وكان مدار اهتمام علماء العربية يتدارسون أسلوبه ويحاولون الوصول إلى أسرار روعته البلاغية، وهكذا أفاد القرآن في ميدان النقد.

وما يمكن استخلاصه من استقصاء هذه الدراسات والاستفادة منها، أن يتحرر النقد من البلاغة والبديع ويرتقي إلى الاهتمام بالنقد الموضوعي الذي يكشف عن القيم الدينية أو الإنسانية على الأقل وعن محاسن النصوص ومقاييسها اعتمادا على مقاييس ليست كلها بلاغية بل للذوق والطبع العربي نصيب كبير فيها، وتجدر الإشارة إلى أن القيم الإنسانية هي الأكثر توافقا من القيم الدينية، فالناس كلهم مجتمعون يجمعون على قبول القيم الإنسانية في حين لا يتوافقون على القيم الدينية التي قد تفرق الناس إلى فئات وطوائف ومذاهب قد يصل الاختلاف بينهم إلى حد القتال واستئصال الطرف الآخر. ولعل من هذا المنطلق وبسببه، تولدت فكرة إبعاد الدين عن الفن حتى يكون موضوع إجماع ولا يؤدي إلى اختلافات قد تفضي إلى صراعات.⁽³¹⁾

ولا شك أننا سنجد الكثير من القيم الجمالية والخلقية والإنسانية إذا ما حاولنا جمع الموضوعات التي وردت في بحوث السابقين من علماء القرآن والبيان الذين تعرضنا لدراسات بعضهم والأصول الفنية في النقد التي نجمت عندهم في دراسات القرآن خاصة وبيان قيمتها من الوجهة الفنية والجمالية اعتمادا على مقاييس النقد وعلم الجمال والذوق حديثا.

مراجع البحث وإحالاته:

- 1) ينظر، القيم الدينية في ميزان النقد العربي القديم، حسين الأسود، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، 2007 ص: 799
- 2) ينظر، كتاب أثر القرآن في تطور النقد العربي، محمد زغلول سلام، ط1 مكتبة الشباب، مصر، ص 13.
- 3) ينظر، القيم الدينية في ميزان النقد العربي القديم، حسين الأسود، ص: 799
- 4) كتاب الحيوان للجاحظ، ت. عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت 1406 هـ 1996 م، ص، 3/131-132.

- (5) يراجع، تاريخ النقد الأدبي عند العرب. إحسان عباس، ط دار الشروق، عمان الأردن، د.ت. ص 99
- (6) ينظر، الموازنة بين الطائنين للأمدي، ت. السيد صقر، القاهرة، 1380هـ، ص: 423/1
- (7) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، ت. علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ط1، دار إحياء الكتب العربية 1371هـ 1952م، ص 58. الأود: الاعوجاج
- (8) ينظر، القيم الدينية في ميزان النقد العربي القديم، حسين الأسود، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق لسنة 2007 ص: 799
- (9) انظر، ديوان الأعشى الكبير، ت. محمد حسنين، المطبعة النموذجية، مصر، د.ت. ص 59، ما يثل : لا ينحو
- (10) انظر، طبقات فحول الشعراء (41/1) وينظر، الموشح ص: 179.
- (11) نضرة الإريض (305 – 306) والاصابة في تمييز الصحابة (394/6)
- (12) انظر طبقات فحول الشعراء (63/1)
- (13) ينظر، صحيح البخاري (729= تحت رقم 3841 كتاب مناقب الانصار باب ايام الجاهلية . وابن حبان في صحيحه (99/13) تحت رقم (5784)
- (14) خزانة الادب (103/2)
- (15) شرح شواهد المغني (327/1).
- (16) انظر مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد 82 الجزء الرابع ص 807
- (17) سورة الشعراء، الآيات: 224-227
- (18) ينظر، القيم الدينية في ميزان النقد العربي القديم، المرجع السابق، ص 808-809
- (19) ينظر القيم الدينية في ميزان النقد العربي القديم، المرجع السابق، ص: 817.
- (20) ينظر المرجع السابق ص 818.
- (21) ينظر، ابن وكيع التنيسي، المنصف للसारق والمسروق منه، تخ: عمر خليفة بن أدريس، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ط1، 1994، 187/1.
- (22) ينظر، أثر القرآن في تطور النقد العربي المرجع السابق ص 362.
- (23) ينظر، مقدمة كتاب أثر القرآن في تطور النقد العربي، المرجع السابق، ص 17.
- (24) ينظر، مقدمة كتاب أثر القرآن في تطور النقد العربي، المرجع السابق، ص 17.
- (25) ينظر المرجع السابق ص 18.
- (26) حاول أحمد مصطفى المراغي التأريخ للبلاغة ورجالها.
- (27) ينظر، مقدمة كتاب "نقد النثر" لطفه حسين طبعة لجنة التأليف القاهرة. بدون تاريخ.
- (28) ينظر، كتاب "الأدب العربي" للكاتب الأمريكي، Gustave von Grun ebaum.
- (29) ينظر، في ذلك "النثر الفني" لزي مبارك، طبعة دار الكتاب بمصر سنة 1934م.
- (30) ينظر، أثر القرآن في تطور النقد العربي، محمد زغلول سلام، ط1 مكتبة الشباب، مصر، ص 22.
- (31) ... حتى أصبح يقال في هذا الصدد: لا تمزق الرواية ومزق المصحف؟؟؟